رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

رجل غير كيمياء الزمن

الأسد فى براثنه..

صاحب العبور العظيم

• سعد بن أبى وقاص •

obeikandl.com

obeikandl.com

فى أواسط القرن السادس الميلادى، كانت قسوة الحياة بما فيها من شظف العيش، تشعل حرارة الخصومات التى تثيرها العصبية بين القبائل، وقد تفشت بينهم الحمية، حين كانت العصبية قوام حياة أرض العرب.. وكان التاريخ فى ذلك الوقت، كما كان فى أكثر الأوقات، لا يحفل إلا بالسادة، ولا يلتفت إلا إلى أصحاب النفوذ والثروة، ويسجل لهم تسلطهم، تسلطا لا يخلو من عسف وظلم وأثرة واستعلاء!!

ويمضى التاريخ فى بعض بطحاء مكة، فيرى لمحات ضوء على وشك أن ينتشر، ويخرج الناس من ظلمات الوثنية، والعصبية، واستعلاء السادة، وقهر الفقراء، والتحرر من العبودية.. ولذلك لم تعرف مكة فى تاريخها الطويل القديم يوما كذلك اليوم المشهود، حين عانق الإسلام ثلاثة من السابقين الأولين وفى اللحظات الأولى من دعوة الرسول ﷺ سرا، وكان ثالث أول ثلاثة هو الفتى القرشى ابن السابعة عشرة سعد بن مالك الزهرى أو سعد بن أبى وقاص خال الرسول ﷺ، فقد كان جده "أهيب بن مناف "عم السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ وقد ظل طوال حياته فخورا بإسلامه المبكر ويقول: "لقد أتى على يوم، وأنى ثلث الإسلام".. بعد أن بسط يمينه إلى الرسول مبايعا، واستجاب له هذه الاستجابة المبكرة التى يعرفها التاريخ.

ولم يسجل له التاريخ فقط أنه أول من رمى بسهم فى سبيل الله وأول من رمى أيضا.. ولكن قد حفظ له دوره كأول من أرسى قواعد الإسلام فى ممالك الفرس العريضة، بعد اقتحام المعركة الأولى الفاصلة والتى فرضت على جيش المسلمين تحديات غير مسبوقة، أولها: عبور

مانع مائى لم يعهدوا مثله، وبالضرورة كيفية تجاوزه والعبور إلى العدو.. وثانيها: مواجهة حشود وأسلحة وعتاد وفيلة هائجة، لم يسبق لهم فى تاريخهم الطويل أن واجهوا مثل هذا الزحف بالرماح والسيوف!!

وكان القدر، أو كان التاريخ ،على موعد مع رجل من أشجع فرسان العرب والمسلمين، رجل يتسور المستحيل، ويتألق فى وجه الخطر.. كان الموعد مع نداء خليفة المسلمين عمر بن الخطاب "الصلاة جامعة "حتى يستشير المسلمين فى أمر جلل وخطير يستوجب معركة فاصلة ضد إمبراطور الفرس، وبعد أن اشتدت الهجمات الغادرة على قوات المسلمين فى أعقاب معركة "الجسر "التى ذهب ضحية لها فى يوم واحد أربعة آلاف شهيد، وحين نقض أهل العراق عهودهم، والمواثيق التى كانت عليهم !! وكانت الإمبراطورية الفارسية قد اتخذت من العرب الذين استقروا فى العراق حرسا للحدود بينها وبين الجزيرة العربية..

ومع "الصلاة الجامعة "فى تلك اللحظات الحاسمة، اتفق أصحاب الرأى والمشورة من المسلمين، على رجل يبعث إلى العراق ويقود جيش المسلمين للقاء الفرس، وحين صاح عبد الرحمن بن عوف: "أنه الأسد فى براثنه.. سعد بن مالك الزهرى، وكان رضي الله عنه صاحب السلاحين: الرمح والدعاء.. إذا رمى فى الحرب عدوا أصابه، وإذا دعا الله دعاء أجابه.. ومع صلابة الإيمان، والولاء الوثيق للإسلام، كان يدرك تماما أن المهمة تاريخية على أرض القادسية ـ باب فارس ـ وأن المواجهة مصيرية لفتح آفاق جديدة أمام نور التوحيد ونشر دعوة الإسلام.. وكانت المعركة بالغة الضراوة بين مائة ألف من المقاتلين الفرس بقيادة أذكى عقول الحرب يومئذ وأخطرهم "رستم" يزحفون بالخيول والفيلة لمواجهة ثلاثين ألف

مقاتل من جيش المسلمين.. وكان التفوق فى العدد وفى السلاح والعتاد لصالح الفرس.. وكانت صلابة الإيمان، والاندفاع إلى الجهاد، والشوق إلى الشهادة، وعنفوان الإرادة لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة.. لصالح جيش المسلمين..

وأدار "الأسد فى براثنه "المواجهة العسكرية وقد بلغ منه الإعياء، وكاد أن يأتى عليه الألم ،بسبب الدمامل التى ملأت جسده قبل أيام من المعركة.. ولكنه أبلى بلاء عظيما، وتهاوى جنود الفرس بعد مصرع قائدهم، وطاردهم جيش سعد بن أبى وقاص حتى "نهاوند" ثم استمرت المناوشات بين الفرس والمسلمين قرابة عامين، حتى تجمع جيش الفرس وأعاد ترتيب صفوفه متأهبا لمعركة فاصلة فى "المدائن "وهنا تجلى الفكر العسكرى لرجل من أصحاب الرسول ﷺ.. كان عليه أن يواجه المانع المائى، ويعبر نهر دجلة فى موسم فيضانه وجيشانه، وقبل العبور كان عليه تأمين مكان الوصول على الضفة الأخرى من النهر والتى يرابط العدو حولها.. فكر عسكرى يناور ويتحفز لفكر عسكرى آخر.. وفى معركة التكتيك العسكرى، والفكر الاستراتيجى للتعامل مع خريطة مواقع المواجهة.. فكر عسكرى لرجل من صحابة رسول الله ﷺ ، قوى الشكيمة، لا يزيغ منه رمح، ولا يعرف غرور القوة، ولا صلف الزعامة، ولا يحرم جيشه من خبرة وهداية شورى المسلمين من خيار أصحاب الرسول ﷺ.. وفكر عسكرى لقائد من الفرس، هو من أذكى عقول الحرب، وأدهى دهاتها يومئذ.. الأول يستند إلى كل أسباب الإيمان، وصدق العقيدة، وولاء مطلق لدين الله.. والثانى يرتكز إلى كل أسباب القوة المادية، وحشود فيالقهم الرهيبة.. وإذا كان سعد بن أبى وقاص يستشعر الخطر، فإن كلمة واحدة يقولها لجنوده، هى أمضى من

ملء الأرض سيوفا. وأدرك سعد أن موقعة المدائن بعد موقعة القادسية، سوف ترسم نهاية إمبراطورية الفرس، وتمهد الأرض باتجاه الشرق لمزيد من الفتوحات الإسلامية.. ولكن.. كيف يواجه نهر دجلة فى موسم فيضانه وجيشانه؟ كيف يعبر جيش المسلمين إلى الضفة الأخرى من النهر؟ وإذا نجحت مغامرة ومخاطر أول عبور عربى لمياه النهر، فكيف تتوافر سبل الحماية والتأمين للأفواج العابرة من الجيش المسلم؟!

ولكن.. لا مستحيل على القلب الشجاع..

....

وقبل أن يبدأ الجيش عملية العبور، كان الصحابى الجليل قد أعد كتيبتين لتولى مهام التأمين فى مواقع الوصول على الضفة الأخرى.. الأولى "كتيبة الأهوال"، والثانية أطلقوا عليها "الكتيبة الخرساء"، وكان جنود هاتين الكتيبتين أول طلائع العبور، وكان عليهم مواجهة جميع الاحتمالات، وأن يخوضوا الأهوال لتأمين مواقع وصول جيش المسلمين بعد العبور.. وبعد نجاح المهمة الأولى، بدأت مهمة العبور العظيم لنهر دجلة وبعد استكشاف مواقع ضفة النهر، وعمقه، وحدود المسافة بين الضفتين، واتجاه تيار النهر فى موسم الفيضان، ونقاط انكسار حدة المياه مع مجرى النهر.. وقد حفظت لنا كتب التراث مشهد العبور واقتحام نهر دجلة أفواجا.. وتقول روايات كتب التراث:

أمر" سعد "المسلمين أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم اقتحم بفرسه نهر دجلة، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد، فساروا فى النهر كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى ملأوا ما بين الجانبين، ولم يعد وجه الماء يرى من أفواج الفرسان والمشاة، وجعل الناس يتحدثون

وهم يسيرون على وجه الماء وكأنهم يتحدثون على وجه الأرض، وذلك بسبب ما شعروا به من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الإله ونصره ووعده وتأييده..

ودار القتال وتطاول، ويندفع سعد كالسهم المقذوف وسط صفوف الفرس، وبين الحين والحين يرسل تكبيرة أو تهليلة أو صيحة يلقى بها أمرا، فتتحول سيوف جيشه إلى مقادير لا راد لأمرها، ويرسم المسلمون صورا تبهر الألباب من ثباتهم ،ومهما كان بأس الفرس وجيوشهم.. وهذه صورة باهرة لإيمان عظيم، وبعزيمة لم تجد أمامها صعوبة إلا قهرتها، ولا عقبة إلا ذللتها، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء.. وتهادت قلاع الفرس وعبادة النار، وحمل فرسان الإسلام إيوان كسرى وتاجه، غنيمة وفيئا، ثم مضت مسيرة الفتح شرقا..

ولم يكن هناك مستحيل على القلب الشجاع، وعلى أشجع فرسان العرب والمسلمين "سعد بن أبى وقاص" وعلى طبيعته الفاضلة التى صاغها وصقلها الإسلام، وعلى قدرته التى غيرت كيمياء الزمن.. فجعلت عصر الطموح والمال والفتن بالنسبة له، أيام زهد وورع وجهاد فى سبيل الله.. وكانت قدرته على جمع المال والثروة من الحلال الخالص، لا تنافس قدرته على إنفاقه فى سبيل الله، وكان حكيما فى العطاء، كما كان حكيما فى الانتفاء.. وفى عصر الطموح والفتن بعد مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان، واشتعال القتال بين جماعة وأنصار كل من على ومعاوية رضي الله عنهما حينئذ اتجهت الأعناق والأبصار إلى "سعد" وقيل له: "هناك مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر".. ويجيب سعد: "أريد من مائة ألف سيف، سيفا واحدا، إذا

ضربت به مؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع" . .

وكان سعد كثير البكاء من خشية الله، عف اللسان، عف الضمير، وهو فى نفس الوقت "الأسد فى براثنه" كما وصفه عبد الرحمن بن عوف، وهو الفارس فى كل مشهد شهده مع رسول الله ﷺ ، وقد اختاره عمر بن الخطاب يوم القادسية لأصعب مهمة تواجه الإسلام والمسلمين .

والشاهد. . أن حركة التاريخ على وجه جزيرة العرب فى ذلك الوقت، لم تكن مجرد حركة لتسجيل وقائع وأحداث، أو مجرد توثيق لحياة رجال حول الرسول ﷺ ، لم يكن للحق عندهم سوى وجه واحد يعرفونه ويتبعونه. . ولكن. . كانت هناك دروسا مستفادة من هذه الصورة الباهرة، وبعد أن كان الإسلام قد فشا فى أحرار مكة ورقيقها، وقد حفظ لنا التاريخ سيرة ومسيرة نماذج أبدعوا فى صياغة ذلك التلاحم بين صدق العقيدة والولاء الوثيق للرسالة. . والاندفاع إلى الجهاد، والاستباق إلى الغزو. . والقدرة على ممارسة حياتهم الدنيوية وإدارة أعمالهم بنجاح حقق لهم وفرة المال حتى صار معظمهم من أغنياء المسلمين وأكثرهم ثراء. .

وهكذا. فإن العظمة الباهرة لأولئك الرجال من أصحاب الرسول ﷺ ، تبدو فى إعجازها كالأساطير، وبقدر ما بذلوا فى سبيل التفوق والعطاء، وبقدر ما عقدوا عزمهم على غاية سامية، ومعهم برهان المنطق والعقل. .